سورية الجريحة في قرطاج...

تكريم محمد ملص ... و «تدمر» في زيارة افتراضية

■ فيما كانت غالبية المواقع الإخبارية تنصرف إلى تناول سوء التنظيم في الدورة ٢٧ من مهرجان أيام قرطاج السينمائية، كان هناك الجانب الآخر وهو الأهم بالنسبة لكل من يهتم بالسينما، جانب العديد من الأفلام الجديرة بالمشاهدة في كل الفئات، والمواضيع المختلفة. ولا شك في أن هذه الدورة شهدت حضوراً لافتاً للسينما السورية أو التي تناولت الموضوع السوري، مثل فيلم الافتتاح «زهرة حلب» للمخرج رضا الباهي وبطولة هند صبري. وعلى رغم الحماسة الشديدة تجاه الفيلم وموضوعه، جاءت النتائج لتؤكد أن الموضوع السوري ما زال بعيد الفهم عن كثيرين، وأن الكارثة التي تعيشها سورية لم تستطع إلا أن تكون أقوى من فيلم يحاول تسليط الضوء على ما يعانيه الشعب السوري من زاوية محددة. في المقابل كان الفيلم الوثائقي الطويل اللبناني «تدمر» لمونيكا بروغمان ولقمان سليم، هو الأكثر مباشرة في نقل صورة ما يعانيه الشعب السوري حتى لو كان من خلال قصة محررين لبنانيين من سجن تدمر. وقبل التوسّع في الحديث عن هذا الفيلم الذي شكل تحديداً، حالة عاطفية لدى غالبية متابعيه وصدمة لمن هم لا يزالون يصدقون الرواية الرسمية للنظام السوري، سنتحدث قليلاً عن المشاركة السورية في المهرجان سواء من خلال المسابقة الرسمية أو من خلال البرامج الموازية، إضافة إلى ضرورة نقل خبر تكريم المخرج السوري محمد ملص وحصوله على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس التونسي الباجي قايد السبسي الذي أكد له أثناء التكريم أن «الشعوب تنتصر دائماً» مع العلم أن ملص حصل على التانيت الذهبي سابقاً في مهرجان أيام سينمائية في قرطاج عن فيلمه «أحلام المدينة» وفيلمه «الليل».

أفلام منقسمة

من الممكن وصف فيلم «منازل بلا أبواب» للمخرج آفو كابرليان و فيلم «مزرعة الأبقار» للمخرج علي شيخ خضر بأنهما قدما صورة غير واضحة التوجه لما يحدث في سورية. وعلى ما يبدو أن هذا الطريق الحيادي هو الأنسب لمخرجين سوريين يريدون نقل صورة بلادهم من دون إعطاء إشارة واضحة عن توجهاتهم السياسية: هل هي مع النظام السوري القائم أم ضده؟. ومشاركة هذين الفيلمين في المسابقة الرسمية الطويلة أعطت مجالاً كبيراً لحضور جماهيري متعطش لرؤية حال سورية بعيداً عما تتناوله نشرات الأخبار. ففيلم «مزرعة الأبقار» الذي تناول قصة حسن ابن عم المخرج الشاب القروي البسيط الذي كانت أحلامه عبارة عن تأسيس مزرعة للأبقار كي يحسن وضعه الاقتصادي، لكن ومع اندلاع الثورة السورية باتت لحسن أحلام أخرى، لها علاقة بواجب الوطن بحسب مفهوم النظام السوري، والذي يعلن عنه حسن في شكل صريح وواضح. لا شك أن طريقة تصوير حسن كانت على ما يبدو في ذهن المخرج، عبارة عن لقطات عائلية بعيدة عن شكل الصورة السينمائية الوثائقية، وتسلسل الأحداث وتطوراتها بخاصة مع توقيت الثورة السورية أعطت الحبكة غير المقصودة في الفيلم، والتي تتلخص بابتعاد حسن عن أحلامه الخاصة مقابل الالتحاق بالجيش السوري، وبالفعل تنتهي حياته معهم، وينتهي الفيلم معه.

هذا الفيلم شخصي يريد تسليط الضوء على فئة الشباب الذي تنازلوا عن أحلامهم طوعاً أو كراهية كي يموتوا «من أجل الوطن». والحال أنك تقترب من الشخصية التي تراها بسيطة وساذجة في تفكيرها، غير دار بما إذا كنت ستشعر بالتعاطف أو الابتعاد عن تبرير ما فعله، ولا تعرف معها إذا قرر حسن وهب حياته من أجل الرئيس السوري بشار الأسد أو من أجل الوطن؟

في المقابل، يأتي فيلم «منازل بلا أبواب» للمخرج آفو كابرليان كنوع من التقاط اللحظة، تشعر أن المخرج لم يخطط للأمر، وأنه مربك مثل كاميرته التي كان يلتقط من خلالها ما يحدث في الشارع المقابل لمنزله، يجري معها يتعثر، وتتعثر معه الصورة، والصدفة وحدها هي التي جعلت من كل هذا الارتباك فيلماً، بحيث يبدو حي الأرمن الحاضر في مدينة حلب، - تم التقاط المشاهد في الفترة بين ٢٠١٣ و٢٠١٥ -، إسقاطاً واضحاً على القضية الأرمنية في حضرة المشهد السوري العام،

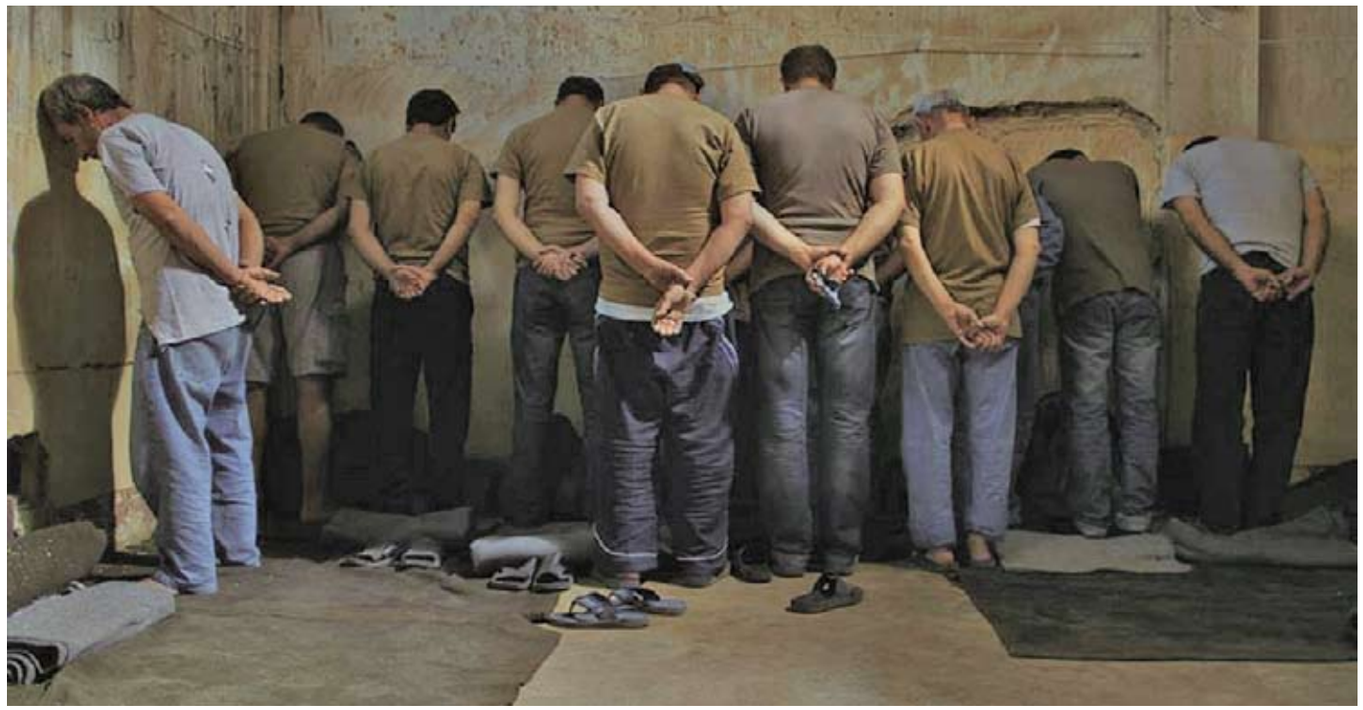

من فيلم «تدمر»

فكل المجازر لها الطعم والرائحة نفسهما والفرق في هوية من يرتكبها، الجنازات كما الأفراح حاضرة من خلال الشباك الذي يسترق منه المخرج لقطاته من دون أي فضول ليكون جزء منها في الشارع. صحيح أن الفيلم مبني على موضوع مميز والإسقاط ذكي، لكن طريقة تناوله بصرياً متعبة بالنسبة إلى المتلقي.

من ناحية أخرى وضمن مسابقة العمل الأول للفيلم الطويل يطل فيلم «جلد» للمخرجة عفراء باطوس لينقل حال الواقع السوري من خلال تخبطات تعيشها الشخصيتان الرئيسيتان في الفيلم: حسين وصبحي منذ اندلاع الثورة السورية وخلالها، هو فيلم كان يستحق الإشادة على أقل تقدير، لكنه خرج كغيره من الأفلام السورية من دون أي جائزة.

وفي تظاهرة «سينما العالم» عُرض فيلم «محاصر مثلي « للمخرجة هالة العبدالله. وتكمن أهمية هذا الفيلم في أن العبد الله قدمت نموذجاً لمعارضي النظام السوري من الفئة التي ممكن وصفها بالبرجوازية المتنورة، وهذا النوع من الحضور مطلوب في المرحلة، بخاصة أن الاتهام أن غالبية معارضي النظام السوري هم من المتشددين دينياً هو الأبرز إعلامياً وسينمائياً، فكان لا بد من وجود وجوه غير ملتحية، تشرب النبيذ وتستمتع إلى الموسيقى العالمية وتحب وطنها بعيداً عن أي نوع من الديكتاتوريات والتطرف، وكل هذا بلسان الكاتب السوري المقيم في فرنسا فاروق مردم بك.

تدمر

هل يكفي عنوان الفيلم «تدمر» لمونيكا بورغمان ولقمان سليم لأن يجعلك تدرك كمية الألم الذي ستشاهده، بمجرد لفظ الاسم الذي ارتبط تاريخياً وبعيداً عن المدينة التاريخية باحتضانه أقسى سجن سياسي في الوطن العربي؟ هل ستتذكر رواية «القوقعة» لمصطفى خليفة، بمجرد أن يمر الاسم أمامك؟ أم أنك ستكون جاهزاً لمعرفة المزيد من خلال شريط سينمائي قدم طريقة عرض مميزة قد تكون شاهدتها في أفلام مختلفة سابقاً، لكن موضوع المعتقل السياسي في تدمر من خلال معتقلين لبنانيين وفلسطينيين سابقين فيه، من الممكن أن يخلق فضولاً عن تحول كل ما سمعناه يوماً إلى شهادة صدف أن تكون على قيد الحياة من جديد.

مجموعة من المحررين من سجن تدمر يعيشون حالياً في لبنان، يقررون أن ينقلوا تجربتهم الذاتية مع ذلك المكان الذي من الصعب وصف كمية الإجرام فيه، عبر طريقتين، الأولى بشهادتهم الذاتية من خلال تركيز الصورة عليهم في مكان فارغ وسماع قصتهم، وثانياً من خلال جعلهم يبنون تلك الأحداث من جديد، حيث تبدأ الحكاية مع وقع أصوات البناء ونشر الخشب ورصف البلاط، وتسنين الحديد، ذلك الحديد الذي شكل القضبان الذي عاشوا خلفها سنوات. إعادة بناء حكاية التعذيب بحد ذاتها جرأة وشجاعة لمن أسعفه أن يكون حياً يرزق ليعطى فرصة لروايتها من جديد، لكنك كمتلقي ستشعر بوهلة أن التماهي مع لعب الدور من جديد يجعلك تنسى أنهم يمثلون إعادة إحياء العذاب، فقد قسموا أنفسهم إلى جلادين وضحايا، مثّل البعض منهم دور الضحية ومثل البعض الآخر دور الجلاد الذي ليس في قلبه رحمة.

الحديث عن هذا الفيلم بتفصيل قد لا يعطيه حقه أمام فرصتك لتشاهده، مثل الحديث عن اللون الأخضر الطاغي في جل مشاهده والذي لا يشعرك بالأمان ولون الخضار بل بالتقزز من كل الذي حدث مع هؤلاء وغيرهم ، كما يفعل الحديث عن طريقة التحكم بنومهم وعقابهم إذا ما تحركت أجسادهم سهواً، معاقبتهم كنيام ليس أقل عذاباً من معاقبتهم في الصحو، عن الطعام وتقسيم البيضة الواحدة على عشرات الأشخاص، أم انتظارهم مناسبة وطنية ليحظوا بشيء من اللحم، أم الحظ العاثر الذي وقف أمام أحدهم وهو يشاهد من ثقب صغير في باب الزنزانة أطباق الرز والدجاج المحمر فوقه، ويزف الخبر لرفاقه، لكنه يشاهد منظر الضباط وهم يبولون على الأطباق لأن أحدهم قرر أنهم لا يستحقون إلا البول فهم يكرهون الرئيس، وحيرة الشاهد على أخبار رفاقه أم يتكتم على الأمر، فيقرر التكتم كي يحظى هؤلاء بشيء أشبه بالحلم بالنسبة لهم؟ أم نتحدث عن سقف الزنزانة المكشوف لضباط الليل الذي يراقبون النيام من المعتقلين ليقرروا من منهم سيتعذب بما اسمه «الدولاب» في اليوم التالي. وللدولاب حكايات كثيرة وتجسيد للحكايات أصعب؟.

أم حكاياتهم مع الموت الذي يصبح أمنية في حضرة تعذيب ممنهج وعشوائي في نفس الوقت، وجثث الرفاق التي تنام معها إلى أن يقرر الضابط سحبها؟ حكايات تقشعر لها الأبدان، وتجعلك تفكر في اللحظة ذاتها وتتساءل ماذا يحدث حالياً مع المعتقلين السياسيين في سورية؟ لتحاول الهرب من الإجابة، من خلال النظر إلى عيون المحررين الذين من الواضح أنهم ما زالوا أسرى عتمة ذلك السجن الفاشي.

«تدمر» فيلم مصنوع بعناية وبدقة، وبطريقة تصوير تتماهى مع طبيعة المشهد المطلوب، هي ثابتة وقت ثبات الشخصية، ومرتبكة في حضرة ارتباكهم وتخبطهم. لكن ومع كل هذا من الضروري المرور على مشهد أحد المعتقلين عندما سقط عصفور إلى جانبه، ورعاه وتأمله وشعر بالحرية معه ولو للحظات. هذا المشهد كفيل بأن يؤكد أن كل أنواع التعذيب تذهب سدى في حضرة التفكير في الحرية حتى لو من خلال عصفور جريح.

علا الشيخ